العرب والشيوعية في عهد جديد

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

السيد م. ب. مهندس بحري امريكي يقيم اليوم في اشبيلية من المدن الاسبانية بعد ان اقام مدة في بيروت وزمنا في مراكش ، وهو يعتبر نفسه صديقا للعرب محبا لهم . وقد تلقيت من السيد م. ب. في غمرة الاحداث التي تتالت على العالم العربي بعد العدوان الثلاثي على مصر في العام الفائت ، رسالة يحذر فيها من عواقب الارتباط الذي بدأ يتوثق بين البلاد العربية ، وسورية منها على وجه خاص، وبين البلدان الشيوعية ، فكان مما قاله في رسالته:

« ما من احد استطاع ان يستخدم الشيوعيين في اغراضه ، وان يفيد منهم،بل كان الشيوعيون هم المستفيدون دوما من الآخرين . ان التاريخ الحديث مليء بالامثلة من هذا القبيل : الهند الصينية ، غواتيمالا ، كوريا ، المجر .. فلنصلِّ لله كيلا يكون كذلك مصير سورية » .

وفي الحق ان التعقل يقتضينا ان نحل هذا التحذير محله ونحن نرى ان علائقنا بالعالم الشيوعي وبالاتحاد السوفياتي بوجه خاص آخذة في الازدياد والتمكن يوما بعد يوم ، وفي ميدان بعد ميدان . فالنظام الشيوعي الذي يعتقد المادية التاريخية اساسا فلسفيا له ويتخذ النفعية المادية له غاية ، والذي حفل تاريخه القصير بالمذابح ومحاكمات التصفية وحركات التهجير الجماعية ، قد اقترن نشوؤه وتطوره في اذهاننا بمكيافيلية لا هوادة فيها الغاية فيها تبرر الوسيلة مهما بلغت الوسيلة من القسوة ، والنفع فيها هو الاساس الذي تزوَّر له الحجج وتخلق له المبررات ويحوَّر من اجله المنطق والمعقول . فاذا عملت الشيوعية التي هذه هي بعض خصائصها فانها تعمل بدراسة وحساب ، واذا اعطت فانها تعطي لتسترد ما تعطيه اضعافا . فمن الفطنة اذن ان نضع نحن العرب تحذير السيد الامريكي م.ب. وكل تحذير يطلقه مواطنوه موضع التقدير ما دمنا نجد انفسنا في هذا الموقف الغريب الذي قل ان وقفت فيه دولة او مجموعة دول في هذه الحقبة الاخيرة من الزمن . ففي الحين الذي يناصب فيه عدد من الدول العربية الاتحاد السوفياتي العداء صراحة قاطعة علاقاتها السياسية معه مهاجمة اياه في كل مناسبة ومحفل ، وفي الحين الذي يصر فيه كل عامل في الحقل السياسي العربي في كل الدول العربية على براءته من الشيوعية وتسفيهه لها والطعن فيها كنظام سياسي واجتماعي ، في هذا الحين وذاك ، نجد الدول العربية ممعنة في الاستفادة من التأييد المعنوي للاتحاد السوفياتي والعالم الشيوعي ، مستمرة في الاستفادة من معونتهما المادية ماضية في توثيق عرى صداقة غريبة تهب الشيوعية فيها عونها وتأخذ لقاءه سبابا في بعض الحالات وطعنا في النظام الشيوعي او عدم اعتراف به في ايسر الاحتمالات. فكيف يصح كل هذا اذا لم يكن وراء الاكمة ما وراءها ، واذا لم يكن المبيت لنا يفوق بكثير ما قدم الينا على انه هبة بينما هو عارية لا بد يوما مستردة؟ من هنا كان تحذير السيد م. ب . في مكانه : احذورا الشيوعيين ، فان احدا لم يستخدمهم في اغراضه ، بينما استخدموا هم كل انسان في أغراضهم ..

في الواقع ان بال كل مهتم بأمور السياسة في العالم العربي ، وبال القائمين على الحكم في البلاد العربية بصورة خاصة ، لم يخل ابدا من موضوع هذا التحذير . فالقادة في كل البلدان العربية حتى في تلك التي ارتبطت مع البلدان الشيوعية بأوثق الصلات ولمست منها العون الصادق في ساعات المحنة ، لا يزالون في وجل من مغامرة الصداقة التي يباشرونها مع بلدان هذا ماضيها ، محكومة بنظام تلك هي سمعته . فهم يترددون ، لدافع او لآخر، عن الاعتراف بتعاون سافر بين بلادهم وبين المعسكر الشرقي ، واذا ذكروا هذا التعاون قدموا بين يديه الاعذار ليبينوا انهم لم يلجأوا اليه الا مضطرين ، كأنهم يشعرون في قرارة انفسهم انهم في هذا التعاون انما يأتون امرا ادنَّا . في خطب الرئيس جمال عبد الناصر ، مثلا ، التي تتصف بالصراحة والواقعية نجد ذكر الشيوعية مغفلا وحق بلدانها مغموطا ،وان الرئيس مع اعترافه بكلمات حاسمة بفضل الاتحاد السوفياتي يفضل ان يمر على ذكره مرورا خاطفا او ان يوميء اليه ايماء ولا يسميه . ونجد قادة حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية ، وهم الذين يمدون الى التعاون مع المعسكر الشرقي ذراعين مفتوحتين ، نجدهم يصرون في كل مناسبة على التأكيد على الخلاف العقائدي بين الفكرة القومية والشيوعية ، وعلى التذكير بأن المعركة القادمة هي بين القومية العربية والشيوعية الدولية . كل هذا يدل على ان الحذر من الشيوعية وما تبيته وراء عونها للعرب في نضالهم ضد الاستعمار وقواه واعوانه واذنابه كامن في نفوس الحاكمين والقادة في العالم العربي ، يسيطر على اذهانهم ويتدخل في أحكامهم وقد يعرقل بعض الاحيان تصرفاتهم . ولكن هذا الحذر الذي يتصف به القادة والحاكمون لا يجد له مكانا في نفوس سواد الناس في الشعوب العربية ، في بلدانها المختلفة وطبقاتها المتفاوتة . فهذا السواد الذي له من القدر والاثر ما يفوق قدر القادة

والحاكمين واثرهم ، والذي تسير نزعاته وميوله العاطفية سياسة اولئك القادة والحاكمين ، قد حقق تحولا كبيرا في نظرته الى بلدان العالم الشيوعي ، وانتقل بعواطفه من ذروة التوجس والنفور والكراهية الى ذروة التودد والاعجاب والحب نحو بلدان المعسكر الشرقي وما تمثله هذه البلدان وما يتعلق بها من نظم وطرز حياة واخلاق جماعات . واذا كان هذا التحول قد اتخذ ميدانه العاطفة اليوم ، فقد يكون نقطة انطلاق الى تحول مثله في ميادين اخرى ، وقد يتلو التودد والاعجاب والحب للانظمة وطرز الحياة واخلاق الجماعات في ذات يوم او ذات ظرف الى ما تتصل به كل هذه العناصر من عقائد سياسية او افكار فلسفية واجتماعية .

ان هذا التحول العاطفي في نظرة العرب الى الاتحاد السوفياتي وبلدان العالم الشيوعي حقيقة واقعة نلمس اثرها في انفسنا وانفس طبقات امتنا من فلاحينا الى مثقفينا . كان العامل الاول في هذا التحول سلبيا مرده الى يأس العرب من انصاف الدول التي تسمي نفسها دول العالم الحر ، والى نقمتهم على مواقف هذه الدول تجاه قضايا العرب الحيوية ومثلهم العليا . فكان كافيا ان يكون الاتحاد السوفييتي خصما عنيدا لفرنسا وانكلترا والولايات المتحدة لتشمل الروس من رجل الشارع العربي نظرة الاهتمام والعطف . الم يكن هذا العامل السلبي هو السبب في ما كان لهتلر في قلوب عامة العرب من منزلة ، على الرغم مما كانت تبشر به النازية وما كانت أفعالها تنذر به من طغيان عنصرية حمقاء وشوفينية ميغالومانية تهون امامها افاعيل الاستعمار واساليبه الاخطبوطية ؟ على ان هذا التحول اخذ يزداد بازدياد العناصر الايجابية بين عوامله ، واغلبها عوامل خطا خطوتها الاولى الاتحاد السوفييتي ودوله اللاحقة ، بدأت بشراء مصر الاسلحة من تشيكوسلوفاكيا وبلغت ذروتها في تلك الليلة الحاسمة حين اصدر بولغانين تحذيره المنذر مهددا بتدمير عواصم العدوان بالصواريخ البعيدة المدى . فأي عربي لم تدخل روسيا الى قلبه في تلك الليلة وكل العرب حينذاك كانوا يعيشون على اعصابهم وهم يتتبعون لمع الاخبار عن عدوان لا تكافؤ فيه من دول عظمى على مصر العربية ، مهدد بالقضاء على املهم الطالع وحقهم الابلج وقضيتهم العادلة ؟ لقد قرر دالس في الكتاب الذي صدر مترجما لحياته انه اراد برفضه معونة مصر في بناء السد العالي ان يبين للرئيس جمال عبد الناصر ان الاتحاد السوفياتي غير جاد في عروضه لتقديم المعونة المالية لمصر . ولكن هذا السياسي العجوز ، واكاد اقول المأفون ، اتاح للاتحاد السوفياتي ان يبين لمصر انه جاد فيما هو اكبر خطرا من معونة المال ، جاد في اثارة حرب عالمية لا تبقي ولا تذر انتصارا لقضية حقة وشعب حر لا يريد ان يفرّط في حريته . وهكذا ، بينما كانت خطب شيبيلوف تلقى في مجلس الامن وهيئة الامم المتحدة ، وكتب بولغانين تتوالى الى رؤساء الدول المعتدية والصور الاذاعية للمظاهرات في انحاء الاتحاد السوفياتي صائحة « ارفعوا ايديكم عن مصر » تذاع على العالم من محطة موسكو ، كانت حواجز التوجس والريبة في نفوس العرب من النظام الشيوعي وبلدانه ومن الشيوعية الدولية ونواياها تتهدم ويقوم مقامها نبت جديد من عرفان بالجميل وشعور بالصداقة الصادقة ومن الاكبار والحب .

وفي الحقيقة ، ما الذي كان في نفوس العرب من الاتحاد السوفياتي وبلدان النظام الشيوعي فنفرهم من الشيوعية واهلها ؟ وما هي العوامل التي باعدت بين الشيوعية كنظام اجتماعي وسياسي والقومية العربية كفكرة ومثل اعلى ؟

لقد غبر على الشيوعية زمن كان كل العالم فيه يناصبها العداء . ولكن اسباب هذا العداء لم تكن واحدة لدى كل امم العالم . فاين كانت دول الغرب في اوروبا وامريكا مدفوعة الى ذلك بدوافع مادية اقتصادية وبالحرص على الحرية الفردية ، فان نفور العرب من الشيوعية كان مصدره عوامل اخرى ترتبط بالمعنى والروح اكثر من ارتباطها بالمادة والاثرة الفردية ، وتتصل اتصالا شديدا بالفكرة القومية العربية ومثلها العليا . فالفكرة القومية العربية ، على انها تسعى الى خلق واقع عربي قابل للحياة في القرن العشرين الذي هيمنت عليه الحضارة الغربية الحديثة وانطبع بالطابع المادي الوضعي ، لا تستطيع الاستقلال عن عناصر معنوية وروحية ترجع في اصولها الى اربعة عشر قرنا على الاقل . اهم هذه العناصر اثنان : القومية بحد ذاتها ، والدين . فالفكرة القومية العربية هي فكرة العروبة والامة العربية التي ضربت اصولها في التاريخ القديم ثم تكاملت شخصيتها في الحقبة قبل الاسلام وبرزت بالاسلام الى الوجود العالمي . تصل الفكرة القومية هذه عند المتطرفين في عروبتهم الى حد العنصرية ، وكل مذهب سياسي او اجتماعي لا يحسب لهذا العنصر حسابه يعتبر في نظر القوميين العرب شعوبيا تجب مجانبته ، فكيف اذا سفه هذا المذهب الفكرة القومية او دعا الى مناهضتها ؟ وكذلك الحال في الدين ، فهو ان لم يكن من العناصر الاصيلة في الفكرة القومية العربية ، فانها تتجنب مناوأته وتلتمس فيه حليفا بل وتعتبره احدى العرى التي شدت أواصر القومية في اشكالها البدائية وفي عصورها الاولى . لذلك يحرص القوميون العرب على ان يتخذوا من الدين ، لا من التعصب الديني ، حليفا طبيعيا يتجنبون به على الاقل نفور الجماهير العربية التي تنغرس فيها جذور التدين عميقا . فكل ما يحارب الدين ، سواء كان الدين اسلاما او نصرانية ، او يدعو الى تهديمه ، يجد صدا وممانعة من دعاة القومية العربية ومن كل العرب . وقد كان لموقف الشيوعية كمذهب فلسفي ونظام سياسي نحو هذين العنصرين المعنويين ، القومية والدين ، اكبر الاثر في نظرة العرب الى الشيوعية والى الاتحاد السوفياتي كرأس

الدول الشيوعية . فلقد عرفت الشيوعية بانها تدعو الى اممية تمحى فيها مميزات الشعوب وينسكب فيها الناس قوالب طبيعية متماثلة لا عزة لقومية فيها ولا كرامة لوطن وعرف عن الشيوعية انها تقول بأن الدين هو افيون الشعوب وانها تسفه القيم الروحية التي نشأت الانسانية وترعرعت على تقديسها ، وانها جهدت بعد ثورتها الكبرى في روسيا في تقويض كل ما اقامه الدين من مؤسسات ومعابد وما نظمه وقام على رعايته من علاقات اجتماعية .

فكان طبيعيا اذن ان يكون نصيب الشيوعية ، وهذا هو موقفها من القومية والدين ، النفور والعداء الصريح من جانب العرب . وكان طبيعيا ان يستغل اعداء الشيوعية في الغرب هذه النواحي الحساسة في اثارة عواطف العرب ضد الاتحاد السوفياتي تأليبهم عليه كلما سنحت لذلك فرصة او دعا الى ذلك داع . وكان طبيعيا كذلك ان لا يكون تقارب بين العرب والشيوعية ، وبين العرب والاتحاد السوفياتي ، ما لم يتغير موقف احد الطرفين من هذين العنصرين الاساسيين، القومية والدين ، فاما ان تكشف الشيوعية عن مناصبتهما البغضاء والعداء ، واما ان تتغير نظرة العرب اليهما فيكفوا عن اعتبارهما من مقومات حياتهم السياسية والاجتماعية ومن دعائم مثلهم الاعلى الاساسية .

ولكن هذا التقارب بين العرب والعالم الشيوعي قد حدث فعلا . حدث لان تغيرا كبيرا في مواقف الدول الشيوعية ، والاتحاد السوفياتي بوجه التخصيص ، تجاه هذين العنصرين قد جرى ، ولان عناصر جديدة قد ولدت في محيط العلاقات العربية السياسية جعلت العرب يدخلون في مفاهيمهم اعتبارات جديدة لا تقل عن الاعتبارات القومية والدينية اثرا في سلوكهم السياسي .

اما الاتحاد السوفياتي فقد اضطرته الحرب الشاملة التي خاضها ضد المانيا حليفا للدول الرأسمالية الى التراجع عن تصلبه في ميادين عديدة لم يكن يعرف فيها تهاونا ، فكان ان ظهرت النعرة القومية والاعتزاز بها في الوجود الشيوعي بعد ان كانت العقيدة الاجتماعية هي الجامعة الوحيدة للشعوب المعتنقة مذهب كارل ماركس ، كما بدأ التسامح الديني يجد له مسارب على هوامش التيار الشيوعي الجارف ولم تلبث هذه التطورات الجديدة على نظم الحياة الشيوعية التي بدأت في داخل الاتحاد السوفياتي ان امتدت الى علاقة روسيا الشيوعية بما حولها فارتفعت اصوات القادة الشيوعيين بالدعوة الى التعايش السلمي بين الدول المعتنقة مذاهب سياسية مختلفة بعد ان كانت الشيوعية تعني المذهب الذي لا يطيق ولا يتقبل ولا يعتقد ببقاء مذهب غيره في الوجود ، ويدعو الى تغيير نظم الحكم في البلدان غير الشيوعية بكل الوسائل ، والثورة اهون هذه الوسائل . وقد تلقى عالم الغرب ومن يسير في فلكه ويعتقد بأرائه ويصدق اقواله دعوة الاتحاد السوفياتي الى التعايش السلمي على انها دليل ضعف او وسيلة خداع تدعو الى مهادنة موقتة بين العالمين المتطاحنين يكون الكسب اثناءها من نصيب الشيوعية التي يعمل الزمن في صفها . ولكن التطورات المحسوسة التي بدت في سلوك الاتحاد السوفياتي بعد موت ستالين دلت على ان الامر ليس مجرد خدعة بل هو خطة جدية مستقيمة . فقد بدأ التسامح بتقبل السوفيات للاجتهادات الخاصة في تطبيق النظام الشيوعي على الدول الشيوعية نفسها . وهكذا اعيدت العلاقات مع تيتو بل اعتبرت القطيعة معه احدى خطيئات ستالين الكبرى الذي اخذ يقرع عليها بشدة ، ولو متأخرا ... بعد مماته . وتقبلت روسيا بعد ذلك النزعات الاستقلالية التي برزت في البلدان اللاحقة بها في بولونيا اولا وفي المجر ثانيا ، لولا ان الانحراف الشديد الذي اتخذته المجر في استقلالها عن الاتحاد السوفياتي اخذ يهدد بخروجها عن الشيوعية نفسها ، مما اهاب بالقادة في روسيا ان يعيدوا النظر في سياستهم المتسامحة وان يبطشوا بالثورة المضادة ، كما اسموها ، بطشة جبار اعادت الى الاذهان الغافلة ان للين نهاية وللتسامح حدودا . اما فيما عدا بطشة الجبار هذه فان سلوك الاتحاد السوفياتي قد خلق ثقة في النفوس برغبته الصادقة في انتهاج سياسة التعايش السلمي ونزوعه الى السلام بين الامم وسعيه الى استقرار الامن في العالم . واذا كان ، في قلب الفئة الحاكمة لروسيا، انصار لسياسة ستالين الفولاذية التي تجعل من الشيوعية شبحا رهيبا عابسا يخيم على العالم بظل ثقيل من القلق والخوف يفضلونها على سياسة خروتشيف ، الضاحك بسخرية ، الواثق من نفسه ، فان التطهير الاخير الذي اتى على كاغانوفيتش ومولوتوف قد رجح كفة السياسة الروسية الجديدة المنطلقة الصريحة التي حملت لواء المبادهة في القضايا الخيرة : الدعوة الى نزع السلاح، الدعوة الى سحق العدوان بأقرب الوسائل وانجعها، الدعوة الى اعطاء الشعوب حق تقرير مصيرها . ولعل الذين اصابهم التطهير لمقاومتهم هذه السياسة هم اول من نعم بمزاياها . ففي هذا العهد الجديد من السلوك السياسي للاتحاد السوفياتي ، غدا التطهير ان يصبح مولوتوف سفيرا في منغوليا ، وكاغانوفيتش استاذا في جامعة ، بينما كان التطهير في مذهب مولوتوف وكاغانوفيتش محاكمات مذلة واعترافات قسرية مهينة ثم نفي الى سيبريا واعدام ومصائر سوداء كالتي انتهى اليها تروتسكي وبوخارين وتوخاتشيفسكي .

اذن ، فقد حدث تغير لا شك فيه في العقلية التي تنظر من خلالها بلدان النظام الشيوعي الى البلدان الاخرى ذات النظم السياسية المغايرة للنظام الشيوعي . فاذا كان الاتحاد السوفياتي والشيوعية يدعوان الى التعايش السلمي ، ويصدقان في هذه الدعوة ، فان معنى ذلك ان تصديهما لمعاني الروحية والمثل العليا في الدين والقومية ، اصبح تصديا نظريا على صعيد الافكار ، لا حربا شاملة تستخدم اسلحة الاثارة والتآمر والتهديم .. وبهذا تتلاشى حواجز

عديدة كانت تفصل العرب عن الاتحاد السوفياتي، ويصبح الناس في العالم العربي قادرين على التفريق بين روسيا كدولة والشيوعية كمذهب سياسي ، بينما كانوا قبلا يعتبرونهما واحدا يؤخذ كلا او يهجر كلا . وهذا ما جرى فعلا . واذا كانت الخطوة الاولى للقضاء على هذه الحواجز قد خطاها الاتحاد السوفياتي فقد اتى عليها بل مهدها تمهيدا اكتشاف العرب ان عنصرا رئيسيا من عناصر مقوماتهم كأمة ، بل العنصر الاساسي في كل هذه المقومات قد اصبح موضوع تهديد لم يكن يخطر لهم على بال ، الا وهو وجودهم كأمة بين امم العالم لها وطن يعد بين الاوطان . لم يكتشف العرب هذا التهديد او لم يفتحوا اعينهم عليه الا بعد ان اصبحت اسرائيل حقيقة تعيش بين ظهرانيهم ، على حقهم ، تحتل ارضهم بعد ان تطردهم منها او تفتك بهم فيها . منذ ظهور هذه النبتة الشيطانية تبين العرب ان عليهم ان يعيدوا النظر في كثير من الاعتبارات التي كانت تطبع بطابعها افكارهم وتصرفاتهم فينظرون اليها من خلال علاقتها بنشوء اسرائيل ونموها وامكانية اجتثاثها والخلاص من شرورها . ادرك العرب ان عليهم تقييم مزايا كل فرد منهم حاسبين حساب اسرائيل وشرور وجودها وخطر بقائها ، فكيف بمذاهبهم السياسية وعلاقاتهم الدولية ؟ وان علاقة العرب بالشيوعية وبالاتحاد السوفياتي وبدول المعسكر الشرقي ، مثل علاقتهم بالدول الرأسمالية والعالم الغربي ، هي بعض ما يجب تقييمه من جديد على ضوء هذا المقياس ، مقياس قيام اسرائيل قياما ظالما فاسدا خطرا في قلب الكيان العربي والموطن العربي والامة العربية .

يحمل العرب ذكرى مريرة لمساهمة الاتحاد السوفياتي في بناء اسرائيل واظهارها الى عالم الوجود ، وذلك في تأييده ودوله اللاحقة به لقيام هذه الدولة المسخ وفي اعترافه بها بعد دقائق قليلة من اعلان قيامها ، محتلا المكان الثاني بعد الولايات المتحدة التي اعترف رئيسها ترومان باسرائيل في الدقائق الثماني الاولى التي تلت منتصف ليل ١٥ أيار ١٩٤٨ . وللشيوعيين العرب حججهم الكثيرة في تبرير هذه الطعنة التي سددها الاتحاد السوفياتي للعدالة الانسانية وحق تقرير المصير وحقوق الانسان ، الا أن هذه الحجج لا تنسينا ان قيام الشيوعية كمذهب وكنظام وان الحكم الشيوعي في روسيا السوفياتية كانا مرتبطين ارتباطا وثيقا باليهودية العالمية التي تولت فكرة الوطن القومي اليهودي وهي حلم ، ثم اخرجت اسرائيل الى الوجود كدولة . ولقد طرحت قضية فلسطين على البحث في هيئة الامم المتحدة في وقت كان فيه ستالين متزوجا من يهودية ، وكذلك كان وزير خارجية الاتحاد السوفياتي مولوتوف القوي العنيد، وكان ، حينذاك ، اليهودي لازار كاغانوفيتش في مكانه كعضو قوى النفوذ في المكتب السياسي لم تستطع كل حركات التطهير التي جرت ايام ستالين أن تنال من مركزه ، فظل اقرب الناس الى الدكتاتور الجبار الذي كان متزوجا اخته روزا كاغانوفيتش ومزوجا ابنته سفتلانا من ابن كاغانوفيتش هذا . وليست هذه العلاقات امورا هينة ولا ما تشير اليه من اثر اليهود واليهودية العالمية في سيرة الاتحاد السوفياتي مما يتغاضى عنه . والدليل على ذلك انه حين بدر من ستالين رد الفعل الذي ينتهي اليه كل حاكم يطول تمرسه بسياسة بلده اذا كان لليهود يد في سياستها ، وحين ادرك الى اين تحاول اليهودية العالمية ان تسوق الاتحاد السوفياتي فأخذ منصفا او مغرقا يحاول القضاء على النفوذ اليهودي في دوائر القيادة العليا من روسيا ، بادئا باعتقال بضعة عشر طبيبا ثمانية اعشارهم من اليهود ، داعيا الى تهجير كافة اليهود من جمهوريات الاتحاد السوفياتي الى قلب آسيا ، حين حاول ستالين ذلك ، انفجر احد شرايين دماغه في رأسه وقضى بين عشية وضحاها رجل روسيا ، بل رجل القرن العشرين ، المخيف ! (١) من المنطقي اذن ان نقدر الاثر الكبير للنفوذ اليهودي في سياسة الاتحاد السوفياتي وسياسة الشيوعية بصورة عامة ، وان نرجع اليه اكبر القسط من انحياز روسيا الى جانب اسرائيل ومناصرتها باطل الصهيونية ضد حقوق العرب . فاذا اتخذ

---

(١) ـ في اواخر ايام ستالين كانت الاحداث والاخبار في الاتحاد السوفياتي تنم عن الاتجاه اللاسامي الذي اخذ يندفع فيه دكتاتور روسيا الحمراء . وكانت قد سرت شائعات بان ستالين ينوي الطلاق من زوجته اليهودية روزا كاغانوفيتش ليتزوج من مغنية في الاوبرا ، حسناء تترية من استراخان .. كما ان ستة عشر طبيبا ، اغلبهم من اليهود ، اوقفوا بتهمة محاولة اغتيال طبي لقادة روسيا العسكريين في مستشفى الكرملين ، وبدأت في البرافدا حملة على مؤامرات صهيونية تحاك ضد الاتحاد السوفياتي.

وفي شباط من عام ١٩٥٣ جمع ستالين اعضاء البريزيديوم الخمسة والعشرين ، وهو ما لم يكن يحدث الا نادرا ، وعرض عليهم مشروع قرار كان في الحقيقة قيد التنفيذ يقضي بتهجير يهود الاتحاد السوفياتي الى اواسط آسيا . فلما اعترض كاغانوفيتش على هذا القرار وطالب كاغانوفيتش بان تطوى قضية الاطباء اليهود وان يلقى القبض على ريومين رئيس قسم التحقيقات في الشرطة السرية ، انفجر ستالين في وجه كاغانوفيتش مغرقا اياه بالشتائم مهددا بالقاء القبض عليه حالا . حينئذ اخرج لازار كاغانوفيتش بطاقة عضويته في الحزب الشيوعي من جيبه ومزقها امام عيني ستالين وهو يقول : « لقد الحقت العار بحزب لينين .. ما انت الا مجرم سافل ! » وما كان كاغانوفيتش يجرؤ على هذا القول لولا انه كان واثقا من مساندة اعضاء البريزيديوم ذوى النفوذ، وعلى رأسهم مولوتوف له وواثقا من ان خطوط التلفون التي تصل الحراس بقاعة الاجتماع مقطوعة . فلما ادرك ستالين انه عاجز عن البطش بخصومه وانه اصبح وحيدا معزولا تملكته ثورة الحنق التي فجرت تلك الشريان في دماغه والقته على بلاط تلك القاعة غائبا عن الرشد دون مسعف طوال ليلة كاملة .

وهكذا قضى ستالين ، وقال ايليا اهرنبورغ : ان الذي انقذ الاتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي الروسي وبلادنا هو لازار كاغانوفيتش !..

الاتحاد السوفياتي موقفا جديدا من هذه الحقوق اقرب الى التفهم والانصاف ، فان من المنطقي كذلك ان يقدر العرب هذه الردة الى الخير وان يعيدوا النظر في موقفهم من روسيا وان تتبدل بذلك عواطفهم نحوها . ولقد قامت دلائل وبراهين على ان هذا الاتجاه من جانب الاتحاد السوفياتي نحو الحق قد اصبح امرا واقعا ، وان القادة السوفيات الذين كانوا يناصرون اسرائيل امسوا معلمين في اواسط آسيا وسفراء في منغوليا ، كاغانوفيتش نفسه ومولوتوف الراسخ النفوذ ، فلا غرابة بعد هذا اذا حدث التطور السريع العجيب الذي وصفته في بدء هذا المقال في علاقة العرب وفي عواطفهم تجاه الاتحاد السوفياتي والشيوعية ، من ذروة التوجس والنفور والكراهية الى ذروة التودد والاعجاب والحب .

في هذا التحول السريع العجيب يجد المغرضون والشكاكون والحذرون من المخلصين مجالا للتساؤل والتخوف والترويع ، فيصيحون الصيحة التي اطلقها في رسالته صاحبي المهندس الاميركي : « حذار ان يكون في هذا منزلق الى هاوية الشيوعية العميقة المظلمة ، الشيوعية كمذهب مادي ونظام اممي ودعوة شعوبية ملحدة .. حذار من الشيوعية ! »

والحق انه اذا كان الاسلوب هو الرجل فان العمل ، او التنفيذ ، هو المذهب . ولقد اصبحت قيمة الشيوعية كمذهب في نظر السواد من ابناء الامة العربية في ظروفنا العصيبة هذه هي قيمة تصرفات الشيوعيين واعمالهم وانتصاراتهم للحق المسلوب وحمايتهم للضعيف يناضل من حريته وكرامته ضد قطعان الذئاب من الدول المستعمرة المعتزة بأنيابها المحددة . واصبحت اقرب الوسائل تناولا في تقدير الشيوعية هي مقارنتها بغريمتها الرأسمالية . فبينما نجد الشيوعية مذهبا غايته خير الجماعة الانسانية ولكن وسائله الى هذه الغاية وسائل ظالمة للحرية الفردية ، مناهضة للمعاني الروحية ، نجد ان الرأسمالية ، وتصرفاتها شاهدة عليها ، تدعو الى صيانة الحرية الفردية وتدعي التعلق بالقيم الروحية لتصل الى غاية هي الشر كله : امتصاص الخيرات واستعباد الشعوب واحتلال الاوطان ، ممثلة بالاستعمار ولا سيما بالصهيونية . ذلك ان الصهيونية في كل هذه الشرور ، هي الاساس ، على الاقل من وجهة نظر العالم العربي وفيما يتعلق بهذا العالم .

ان الصهيونية هي الاساس في كل ما حاق بالعالم العربي من شرور العالم الغربي ، عالم الاستعمار والرأسمالية الذين يسمونه العالم الحر . فقد يعتبر ساسة الاتحاد السوفياتي اسرائيل اداة الاستعمار للعدوان ولاثارة القلق في الشرق الاوسط ، وقد ينادي قادة العرب بأن اسرائيل هي ذنب الاستعمار وربيبته ، ولكن الحقيقة كل الحقيقة هي ان الاستعمار نفسه اصبح ، ، في هذا العصر ذنبا لاسرائيل وعبدا مسخرا لقوى اليهودية العالمية . تظن الدول الغربية ، مقتنعة او متظاهرة بالاقتناع ، انها للحفاظ على مصالحها والدفاع عن نفوذها تجيش جيوشها وتعبىء اساطيلها وتعرض كيانها وكيان العالم للتلاشي والفناء في حين انها تفعل كل ذلك في الواقع لتدافع عن باطل اسرائيل في دعوى حد او لتقطع اسرائيل ارضا او لتطيل في عمرها يوما . فكيف يمكن ان يصفو ما بين العرب وهذه الدول ما دام العرب يعتبرون كل دولة وكل قوة ومذهب باعتبار علاقتها بالصهيونية العاملة على بناء دولتها على انقاض كيانهم وعلى خلق وجود لاسرائيل بافناء وجودهم ؟ ان كل اعتبار في نظر العرب يأتي بعد هذا الاعتبار في المحل الثاني . فاذا حل الاتحاد السوفياتي محلة من التقدير في نفوس العرب فلأنه، على كونه عالماشيوعيا، قد تحرر من نفوذ الصهيونية والتزم جانب العدالة والانسانية . وسيظل هذا مكانه من التقدير ما دام هذا موقفه من الحق .

أو ليس من خطر في الانسياق وراء هذا التقدير الذي اخذ العالم العربي يفصح به حيال الاتحاد السوفياتي والذي تلا مبادلات وتلته علاقات تزداد توثقا يوما بعد يوم ؟ يجدر بي أن أعود في هذا الى تلك الرسالة التي تلقيتها من السيد م.ب. والتي ذكرت امرها في مستهل هذا المقال. فقد كان جوابي على تحذير صاحبي المهندس البحري الامريكي المقيم في اشبيلية رسالة طويلة قلت له في ختامها :

« .. بقي شيء واحد : الخوف من ان تنقلب المعونة الشيوعية التي تبدو الآن مجردة من الغرض ، الى تدخل واحتلال . ان هذا الخوف كان مصدره دوما الى نفوسنا دعاية العالم الحر . ولكن شكوكا كثيرة اخذت تنتابنا في ما كانت تقوله لنا بلاد العالم الحر هذا الدمقراطية : ففي اثناء العدوان على مصر كانت فرنسا وانكلترا تشنان حربا سافرة وتدعيان انهما تصنعان بذلك سلما ، وكانتا تقترفان على ارضنا الجرائم البربرية وتقولان ان هذه هي المدنية . ومع ذلك ، وبافتراض ان الخوف من التسرب الشيوعي مبني على حقائق ثابتة فان علينا ان نختار بين امرين : بين الغرب الذي بحمايته لاسرائيل وتقويته لها يهددنا في وجودنا ، والشيوعية التي بتدخلها في بلادنا وامورنا تهددنا في حريتنا . وسنختار الامر الثاني ، لانه حين يبقى لنا وجودنا موفرا فسيظل لنا امل النضال من اجل حريتنا والحصول عليها . اما حين نفقد الوجود فاننا نفقد معه كل شيء : الحياة كلها ، والحرية معها » .

الرقة « سورية » **عبد السلام العجيلي**